جامعة زيان عاشور بالجلفة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الإنسانية

محاضرات في مادة

تاريخ الدولة العثمانية

للسنة الثانية تاريخ عام (ل.م.د)

السداسي الرابع

وفق برنامج وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

إعداد

الشافعي درويش أستاذ محاضر أ

chafaiderouiche@yahoo.fr

السنة الجامعية: 1440 هـ – 1441 هـ / 2019 م – 2020 م

مقدمة :

تعتبر مادة الدولة العثمانية من امتع الموضوعات التي يمكن للباحث الخوض فيها ،كما أن المادة التاريخية المتعلقة بهذا المقياس غزيرة ،واقصد بذلك ما كتبه المؤرخون المشارقة والأتراك دون تمييز .لكن هذا بدوره لا يقلل من قيمة الباحث في هذا المقياس أو الدارس له على حد سواء ،بقدر ما يزيد من صعوبة مواضيع المقياس من جهة ،والمسؤولية على الباحث من جهة أخرى .

ومادة الدولة العثمانية مخصصة للسنة الثانية تاريخ عام (ل م د) ،وهي مادة استكشافية تدرس خلال السداسي الرابع ،أي منذ مرحلة ظهور الدولة العثمانية وتأسيسها ،مرورا بمرحلة قوتها ،ومرحلة الفتوحات العثمانية ،وإلى غاية سقوط الدولة العثمانية وإنهاء الخلافة العثمانية في سنة 1924م .ويشمل هذا المقياس عدة مواضيع كما هو موزع حسب البرنامج المسطر من قبل وزارة التعليم العالي

وقد درسنا 4 محاضرات قبل العطلة الربيعية ،وسنحاول استكمال المتبقي من خلال هذه المحاضرات .

المحاضرة الخامسة : التوسع العثماني في المشرق العربي (تابع) :

الإشكالية : ماهي المراحل التي تتبعها العثمانيون لضم بلاد المشرق العربي لسيادتهم ؟ كيف كان موقف شعوب المنطقة من هذا الفتح ؟وما هو رد فعل المماليك ؟ .

1- فتح بلاد الشام :

- تعاطف سكان بلاد الشام مع العثمانيين :

يبدو جليا من خلال كلام ابن إياس مؤرخ المماليك ،إن المماليك كانوا يشعرون منذ فتح العثمانيين للقسطنطينية بقرب الانقضاض عليهم ،فقد أخذت دولة إسلامية قوية تنمو على حدودهم الشمالية، تشق طريقها الخاص .ومن جهة أخرى أن سلطنة المماليك وصلت إلى أدنى درجات الانحلال الاجتماعي .وأمام العجز المملوكي الخارجي عن مواجهة غزو الأوربيين ،ووقف الانحلال الاجتماعي ،بدأت أنظار المسلمين تتجه تدريجيا نحو الخلافة الإسلامية المتنامية ،والمتمثلة في الدولة العثمانية ،التي بلغت أوج قوتها في القرن السادس عشر .وحسب ابن إياس ((...**أن شائعات وصلت إلى مصر عن العدل الزائد عن أولاد عثمان وهم في بلادهم قبل أن يدخل سليم الأول إلى مصر** ...)) .

وفي بلاد الشام كان التعاطف مع العثمانيين قد بلغ أشواطا بعيدة قبل حصول معركة مرج دابق ، ويتضح ذلك من خلال مضمون نقاش ورد بين السلطان الغوري وأمرائه ،حيث وجهوا له الكلام ((**يامولانا السلطان غالب البلاد الحلبية خرجت عن أيدينا ،وصار بيد ابن عثمان ،وخطب له فيها باسمه ،وضربت السكة باسمه ...وفسدت أحوال المملكة ،وغالب الرعية بحلب وغيرها من ظلم النواب ،وجورهم يميلون إلى ابن عثمان لأجل عدله في الرعية ،وهذه الأحوال غير صالحة**)) .وكان لأخبار الانتصارات ،التي حققها العثمانيون في أوربا صدى في العالم الإسلامي ،فقد ظهرت منشورات داخل الدولة المملوكية تمجد العثمانيين .ومن جهة أخرى ظهرت المشاعر المعادية في الأوساط العثمانية ،بعد أن رفض المماليك التعاون مع العثمانيين في حربهم ضد الصفويين في سنة 1502م ،وبذلك تحول المماليك تدريجيا إلى عدو في نظر العثمانيين .

بعد انتهاء السلطان سليم من الصفويين وهزيمتهم في جالديران سنة 1514م ،بدأ في الاستعداد لمهاجمة المماليك ،وقرر ذلك في سنة 1516م ،ولما علم السلطان قنصوه الغوري بتأهب السلطان سليم لمحاربته ،أرسل له رسولا لعقد الصلح ،لكن السلطان سليم طرد السفير ،سار بجيشه إلى بلاد الشام قاصدا وادي النيل .

- معركة مرج دابق وضم بلاد الشام :

قرر السلطان سليم حسم أمر إمارة ذي القادر ،التي تحظى بتأييد للمماليك ،والتي تعاون أميرها علاء الدولة مع الصفويين في صراعهم مع العثمانيين ،عندها أعلن السلطان الغوري التعبئة استعدادا للحرب .ونتيجة لذلك تولدت قناعة لدى الشعب بان الصراع مع العثمانيين لا مبرر له . فبدأت فئات الشعب في بلاد الشام بتقويض تدابير التعبئة العامة ،بل انخرطوا في أعمال معادية للحكومة بصورة مباشرة ،وخرجت قرى كثيرة باسرها عن طاعة السلطات المملوكية ،وبدا التفسخ في الأوساط الحاكمة ،وبدا كثير من القادة العسكريين ،وعلى رأسهم خاير بك عامل حلب ،يتعاطف مع العثمانيين ،فيما راح نائب الشام يرسل إلى السلطان الغوري ،رسائل تموه عن تحركات العثمانيين على الحدود .وفي هذا الوضع المتفاقم حاول السلطان الغوري تأخير اندلا ع العمليات العسكرية بكل الوسائل ،لكنه فشل في ذلك .

وقعت معركة مرج دابق وهي قريبة من حلب ،بين الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول ، الذي كان عمره 46 سنة ،والجيش المملوكي بقيادة السلطان قنصوه الغوري ،والذي كان عمره 66 سنة ،وكان الغوري قد اصطحب معه الخليفة العباسي المتوكل إلى أرض المعركة ،وكان الجيش العثماني مزود ب 300 مدفع ،ومكون من 60000 جندي ،أما الجيش المملوكي فكان مكون من 80000 جندي ،لكن المماليك لم يستغلوا التفوق العددي.

التقى الجيشان في مرج دابق شمالي حلب في 24 أوت سنة 1516م ،وكان مع السلطان الغوري نائبه في دمشق الغزالي ،والأمير فخر الدين المعني نائبه على لبنان ،فاشتعلت الحرب بين الجيشين ،فاستمال السلطان العثماني سليم ،الغزالي والمعني فانحازا إليه ،ورجحت كفة الحرب للعثمانيين ،فانهزم المماليك ،وقتل السلطان الغوري ،وخلفه ابن أخيه السلطان طومان باي ،فانسحب المماليك إلى غزة
فلحقهم العثمانيون وهزموهم ،ففر طومان باي ومن بقي من قواته إلى مصر.

وعن تفاصيل هزيمة المماليك في الشام ،فبعد أن ذاع نبأ مقتل الغوري ،ولى الجنود المماليك هاربين ،وأغلق سكان حلب باب مدينتهم في وجه المماليك الهاربين ،بينما فتحت المدينة أبوابها للعثمانيين ،واستقبل السلطان سليم بالحفاوة ،والترحاب ،وأقيمت خطبة الجمعة باسمه ،ومكث فيها ثمانية عشر يوما نظم شؤونها ،ثم توجه إلى حماة ،ثم حمص ،ثم مدينة دمشق ،ثم قصد أمراء لبنان ،وتوالت مدن طرابلس ،نبلس ،والقدس وغزة .فرح الناس بالحكم الجديد ،ورحبوا به ،واعتقدوا أن السلطان العثماني سليم الأول ؛قادر على رفع مستوى البلاد من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والإدارية كافة .

2- ضم العثمانيين لمصر:

- معركة الريدانية :

كان المماليك قد اختاروا بعد مقتل السلطان الغوري ،ابن أخيه طومان باي سلطانا لدولة المماليك ،والذي استعد لمواصلة الحرب ضد العثمانيين .وكان السلطان سليم قد أرسل سفارة إلى طومان باي ؛يعرض عليه الاعتراف به كحاكم تابع له .لكن سفارة السلطان سليم لم تنجح ،لان طومان باي قام بإرسال جيش إلى غزة لاستردادها في ديسمبر من سنة 1516م ،لكن الجيش المملوكي هزم بسبب قوة مدفعية العثمانيين .فتقدم العثمانيون نحو مصر ،أراد طومان باي التصدي لهم عند الصالحية ،قبل أن يصلوا موارد المياه والرعي ،لكن كبار قادته اصروا على الوقوف عند معسكر الريدانية خارج القاهرة ؛لملاقاة الجيش العثماني .

التقى العثمانيون والمماليك في الريدانية في 22 جانفي 1517م ،فانهزم المماليك ،وفتحت أبواب القاهرة ،وتقرر مصير مصر خلال ساعة واحدة ،ففر طومان باي ،ولكن تم إلقاء القبض عليه ،بعد أن سلمته إحدى قبائل البدو للعثمانيين ،وأعدم في باب زويلة بالقاهرة .وقد وصف المؤرخ المصري ابن إياس إعدام السلطان طومان باي بقوله ((**فور أن أسلم الروح ارتفعت صيحة مدوية من الحضور ،إذ لم يشهدوا من قبل قط شنق أي من سلاطين مصر على باب زويلة ،لم يحدث هذا أبدا**)) .

مكث السلطان سليم لبعض الوقت في القاهرة ،فقد امتدت إقامته ما يقرب تسعة أشهر، فاستقبل سفراء الدول الأوربية ،ونظم البلاد ،ثم عاد إلى الأستانة ،مصطحبا معه الخليفة العباسي المتوكل على الله ،وقد اختلف الرواة حول صحة تنازل الخليفة العباسي عن الخلافة ،فيذكر البعض أنه ((**تنازل عن الخلافة وسلم الأثار النبوية اشريفة البيرق ،والبردة واللواء ،وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين ،ومنذ ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميرا للمؤمنين ،وخليفة لرسول رب العالمين**)) .

في حين ذكر البعض أن ((**موت الخليفة كان خاتمة آخر فصل في تاريخ الخلافة الإسلامية ،وسواء تنازل الخليفة عن منصبه للسلطان العثماني ،أم لم يفعل فإن الحقيقة الثابتة ؛هي أن حاكم القسطنطينية ظل يتمتع بالتدريج بامتيازات الخلافة**)) .

إن نجاح العثمانيين العسكري في بلاد الشام ومصر ،وإشرافهم على البحر المتوسط ،نبّه إسبانيا والبندقية إلى مدى قل وزنها السياسي ،والعسكري ،والديني ،وخطورة هذه الدولة الناشئة ،حتى أن البابا ليون العاشر ،الذي كان يخشى أن تتعرض سلامة أوربا للخطر ،شرع يعدّ حربا صليبية جديدة . كما استفاد العثمانيون من موقع بلاد الشام لضرب الإسبان ،والبنادقة وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس في عرض البحر المتوسط .

3- ضم الحجاز للسيادة العثمانية :

دخل الحجاز دخولا سلميا تحت السيادة العثمانية ،إذ رأى الشريف بركات بن محمد (1495-1524) شريف مكة ،أن يتحول بولائه للعثمانيين ،بعدما كان إقليم الحجاز تحت السيادة الاسمية للمماليك .فقد كانت مصر ترسل كل عام الأموال والغلال لفقراء مكة والمدينة ،والمرتبات والهدايا لأشراف الحجاز .ولما دخل السلطان سليم القاهرة ،وجد بها بعض القضاة ورجال العلم من الحجاز ؛ كان السلطان الغوري قد اعتقلهم ،فاطلق السلطان سليم سراحهم ،فأشاروا عليه بأن يكتب إلى شريف مكة الشريف بركات ،يدعوه إلى الدخول في طاعة العثمانيين .استجاب بركات للدعوة التي تلقاها ،وأرسل ابنه (أبو نمي) إلى القاهرة يحمل التهاني للسلطان سليم ،ومفاتيح الحرمين الشريفين . وقد أكرم سليم وفادة الابن ،وأعطاه تفويضا بحكم والده ،وقرئ التفويض في مكة المكرمة ،وخطب باسم السلطان سليم ،واحتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة ؛كما كان في أيام دولة المماليك .

واذا كان التفويض للشريف بركات قد قوّى مركزه أمام خصومه ،فقد جعل من السلطان سليم خادما للحرمين الشريفين ،وجعل مكانته أقوى أمام الشعوب الإسلامية ،وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافا كثيرة على الأماكن المقدسة .وقد أدى ضم العثمانيين للحجاز ،إلى بسط السيادة العثمانية في البحر الأحمر ؛مما أدى إلى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر .

ومما سبق يمكن القول أن ضم العثمانيين لمصر ،جعلهم يرثون ممتلكات المماليك ،وجعلهم يفكرون في ضم شبه الجزيرة العربية ،والبلاد العربية عموما .فقد سارعت الأقاليم التي كانت تابعة للمماليك بتقديم فروض الطاعة للعثمانيين ،منذ سقوط القاهرة على يد السلطان سليم الأول ،وبالتالي ورث العثمانيون الأرض ،وورثوا الشرعية الدينية والروحية ،التي خولت لهم حكم العالم الإسلامي .